إِخْوَانُ صَبْحَة (صَبْحَى)

عِيَالُ طَمَّاحْ

قِصَّةٌ تَارِيخِيِّةٌ مِنْ تُرَاثِ اَلْعَشَائِرِ اَلْفُرَاتِيَّةِ

كَتَبَهَا: غَيْلَانُ اَلْحَسَنُ اَلْمُحَمَّدُ اَلْجَاسِمُ

الإثنين، 10 شعبان، 1445 هجري

الموافق: 19 شباط، 2024 ميلادي

بِسْمِ اللَّهِ اَلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِهِ أَسْتَعِينُ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِهِ اَلصَّادِقِ اَلْأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَبَعْدُ،

مِنْ اَلشَّائِعِ وَالْمَأْلُوفِ أَنَّ لمُخْتَلَفِ شُعُوبِ اَلْأَرْضِ قَصَصٌ وَحَكَايَاتٌ وَقَعَتْ تَعَرِضُ سِيَرَ وَحِكَمَ وَعِبَرَ يَتَلَقَّاهَا جِيلٌ ويَتبادَلُها لِيُنِيرَ دَرْبَ اَلْأَجْيَالِ اَلْقَادِمَةِ.

وَلِلْعَرَبِ نَصِيبٌ كَبِيرٌ مِنْ أَحْسَنِ اَلْقَصَصِ اَلَّتِي يَسْمَعُهَا اَلْقَاصِي وَالدَّانِي، فَمَا زَالَ تُرَاثُ اَلْعَرَبِ يَزْخَرُ بِتِلْكَ اَلْحِكَايَاتِ اَلَّتِي تُرَسِّخُ مَكَانَتَهُمُ وَإِنْتَاجَهُمُ اَلْحَضَارِيُّ اَلْمُمَيَّزُ عَبْرَ اَلتَّارِيخِ.

ويُعْتَبَرُ اَلْعَرَبُ أَوَاسِطَ بَيْنَ اَلشُّعُوبِ، ويَشْتَهِرُونَ بِصِفَاتٍ وَشَمَائِلَ طَيِّبَةٍ رَغْمَ تَبَايُنِهَا مِنْ قَبِيلَةٍ إِلَى أُخْرَى، لَكِنَّ أَهَمَّ تِلْكَ اَلصِّفَاتِ اَلَّتِي حَرَصَ عَلَيْهَا اَلْعَرَبِيُّ قَدِيمًا وَحَاضِرًا، هِيَ اَلْكَرَمُ وَالْوَفَاءُ وَالشَّجَاعَةُ وَالنَّخْوَةُ وَالتَّفَاخُرُ وحُسْنُ الجِوارِ.

لَقَدْ حَرَصَ اَلْعَرَبِيُّ عَلَى اَلتَّمَيُّزِ بِصِفَةِ اَلْكَرَمِ وَذَمِّ اَلْبُخْلِ، كَمَا أَنَّ اَلْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ جَعَلَ اَلْعَرَبِيُّ يَبْذُلُ كُلَّ غَالٍ وَنَفِيسٍ لِاحْتِرَامِ وَعْدِهِ وَالْحِفَاظِ عَلَى عَهْدِهِ، أَمَّا صِفَةُ اَلشَّجَاعَةِ وَعِزَّةُ اَلنَّفْسِ فِي عَقِيدَتِهِم وَإِيمَانِهِم فَقَدَ مِيزَتْهُمْ كَقَوْمٍ لَا يَهَابُونَ اَلْمَوْتَ أَبَدًا، بَلْ يَعْتَبِرُونَهُ شَرَفًا وَطَرِيقًا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا اَلسَّمَاواتِ وَالْأَرْضِ.

إِنَّهم لَا يَقْبَلُونَ اَلذُّلَّ وَالْهَوَانَ، وَإِذَا تَعَرَّضَ أَحَدُهُمْ إِلَى اَلْإِهَانَةِ فُرَادَى أَوْ جَمَاعَاتٍ، رَكِبُوا خُيُولَهُمْ وَاسْتَلُّوا سُيُوفَهُمْ نُصْرَةً لِلْحَقِّ وَالْمَظْلُومِ.

وَإِذْ كَانُوا يُوصَفُونَ بِشِدَّةِ اَلِانْفِعَالِ وَالْغَضَبِ فَتَاجَهُمُ اَلسُّؤْدُدُ وَالْحِكْمَةُ والوَقارُ يَسْعَوْنَ لِلْمَيْلِ إلى السِّلْمِ وَالسَّلَامِ وَالْعَفْوِ عَنْ اَلْإِسَاءَةِ حِينَ اَلْمَقْدِرَةِ عَلَى اَلْمُعَاقَبَةِ.

أَمَّا حُبُّهُم لِلتَّفَاخُرِ فَهُوَ وَلِيدُ كُلِّ تِلْكَ اَلصِّفَاتِ وَالشَّمَائِلِ وَكَيْفَ لَا وَقَدْ كَانَ سَيِّدُ اَلْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ اَلصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَفْخَرُ بِنَسَبِهِ يَوْمَ حُنَيْن وَيَقُولُ " أَنَا اَلنَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا اِبْنُ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبْ" [7].

وَبَيْنَ اَلْفَخْرِ وَالشَّجَاعَةِ كَانَتْ تُلْفَظُ اَلنَّخْوَةُ كَصِفَةٍ لِكُلِّ مِنْ يُبَادِرُ فِي نُصْرَةِ اَلْمَظْلُومِ وَالضَّعِيفِ وَالْحَلِيفِ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةُ لَائِمٍ، ظَاهِرِينَ عَلَى اَلْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اَللَّهِ.

و**صَبْحَةُ** فَارِسَةٌ عَرَبِيَّةٌ أَصِيلَةٌ أَهْلُهَا كِرَامٌ مَيَامِينُ، وَأَجْدَادُهَا ذُو حَسَبٍ وَنَسَبٍ شَرِيفٍ وَذَوِي رِفْعَةٍ وَسُؤْدُدٍ، نَزَلُوا فِي مِنْطَقَةِ اَلْفُرَاتِ اَلْأَوْسَطِ بِالْقُرْبِ مِنْ كَرْبَلَاءَ فِي أَوَاخِرِ اَلْقَرْنِ اَلتَّاسِعِ اَلْهِجْرِيِّ، مُنْتَصَفِ اَلْقَرْنِ اَلْخَامِسِ عَشَرَ اَلْمِيلَادِيِّ [4].

وذلك بَعْدَ هِجْرَةٍ طَوِيلَةِ اَلْأَمَدِ مليئةٍ بالإنجَازاتِ مِنْ ظَعْنِ اَلْمَدِينَةِ اَلنَّبَوِيَّةِ وغوطَتِها إِلَى نَجدٍ، وَتَنَقَّلَوا مِنْ إِمَارَةٍ إِلَى أُخْرَى أُمَراءَ في نَجْد وقادةً في الكُويتِ وَمُسْتَشارينَ في قَطَرَ.

حتَّى إذا انْتَهى بِهِمُ المطافُ إِلَى حَاضِرَةِ اَلْبَصْرَةِ عَلَى اِمْتِدَادِ شَطِّ اَلْعَرَبِ، رَكَنُوا إِلَى مَنَاطِقَ عَشَائِرِيَّةٍ تَعْمَلُ بِالزِّرَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ في الشَّاميَّةِ بالتَّوازي معَ نَهْرِ الفُراتِ وَأَقَامُوا سَكَنَهُمْ وَبَسَاتِينَ اَلنَّخِيلِ وَاسْتَوْطَنُوا فِيهَا.

وتزوَّجَ إخوانُها مِنْ بناتِ شيوخِ اَلْبُوسَرَايَا الَّذينَ كانوا يَقْطِنونَ المَنْطِقةَ نفْسَها، تَوسُّماً منهم أن يَعِمَّ السَّلامُ والاسْتِقْرارُ بالابْتِعادِ عَنْ مَنطِقةٍ حُبْلى تُحيطُ بِها أشَدُّ الخُطَطِ وأخْطَرُ الفِتَنِ. وقَدْ كانَ يُعْرَفُ عَنِ اَلْبُوسَرَايَا الاستقلالَ والنَّزْعَةَ لِلوثوبِ والْحُروبِ [1].

لَكِنَّ اَلِابْتِلَاءَ اَلْعَظِيمَ قد وَقَعَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلِلنَّخْوَةِ ثَمَنٌ بَاهِظٌ لَا تُقَدَّرُ عَوَاقِبُهُ، وخَاصةً إنْ كانَ لِعَصَبيّةٍ ، فَلَمَ يَلْبَثُ أَنْ أَغَارَتْ قَبِيلَةُ اَلْمَسْعُودِ اَلشّمَّرِيَّة وَالْجبُورِ عَلَى عَشِيرَةِ اَلْبُوسَرَايَا كما في عادَةِ عَرَبِ الجَّاهِليةِ، واَلَّذِينَ بِدَوْرِهِمْ طَلَبُوا اَلْعَوْنَ وَاسْتَجَارُوا أَنْسِبَاءَهَمْ إِخْوَانُ صَبْحَةَ اَلَّذِينَ كَانُوا يَشْتَهِرُونَ بِنَخْوَتِهِمْ وَأَصَالَتِهِمْ اَلْعَرَبِيَّة، وَتَمَّ دَحْرُ شَمَّرَ وَجْبُورَ حَيْثُ اِسْتَطَاعَتْ صَبْحَةُ الفارِسَةُ اَلْأَصِيلَةَ الشُجاعَةَ وَحْدَهَا قَتْلَ اِثْنَيْ عَشَرَ فَارِسًا مِنْ شَمَّرَ وَمِثْلَهُمْ مِنَ الجبورِ.

وَعَلَى أَثَرِ تِلْكَ اَلْوَاقِعَةِ اَلْمَشْهُورَةِ وَحَقْنَا لِمَزِيدٍ مِنْ اَلدِّمَاءِ، اِرْتَحَلَتْ شِمالاً قَبِيلَةُ اَلْبُوسَرَايَا وَكذلك إِخْوَانُ صَبْحَة عيالُ طَمَّاحَ مِنْ كَرْبَلَاءَ إِلَى عَانَةَ، ثُمَّ إلى صَحْرَاءِ ونَهرِ اَلْهَوْلِ حَتَّى اِمْتِدَادِ مِنْطَقَةِ اَلْخَابُورِ وَرَأْسِ اَلْعَيْنِ ثمَّ مِنْطَقَةِ دَيْرِ الزَّوْرِ.

اسْتَقَرَّ إِخْوَانُ صَبْحَة فِي رَأْسِ الْعَيْن وَدَيْرِ الزَّوْرِ، وَاشْتَرَوْا الْأَرَاضِي وَالْبَسَاتِينِ، وَاشْتُهِرُوا بِالْعَطَاء اللَّامحدودِ وَالتَّسَامُحِ وَكَرَمِ الْأَخْلَاقِ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنَّ حِلفَ عَنِزَةَ غَارَ عَلَى أَلْوِيةِ الظَّفيرِ فِي نَجْدٍ مَرَّةً أُخْرَى، فَهَبَّ أَحْفَادُ الْأميرِ راشِدَ عيالُ طَمَّاحَ [2] إِخْوَانُ صَبْحَة مَعَ إِخْوَانِهِم وَبَنُو عُمُومِهِم نُصرَة لِقَبِيلَتِهِمْ فَوَصَلُوا إِلَى مِنْطَقَةِ السِرّ فِي نَجْدِ، وَدَفَعُوا عَنْهَا هَذَا الْهُجُومُ ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَنَاطِقَ أَجْدَادِهِمْ فِي الْبَصْرَةِ وَشَطِّ الْعَرَبِ وَالْفُرَاتِ الْأَوْسَطِ [1].

وَهكذا تَرَدَّدَ صَدَى حَادِثَةَ إِخْوَانِ صَبْحَة إِثْرَ ذلِكَ أَنْحاءَ بِلادِ النَهْرينِ في ذلِكِ الوقتِ والزَمَانِ، حَتَّى أَصْبَحَتْ تُرَدَّدُ فِي حَمَاسةِ اَلْفِتْيَانِ وَالْفَتَيَاتِ وَزَغَارِيدِ اَلنِّسَاءِ وَأَهَازِيجهنَّ فِي حَوَاضِرَ اَلْفُرَاتِ اَلْأَعْلَى حَيْثُ كَانَ اَلِامْتِدَادُ اَلْعُثْمَانِيُّ فِي اَلْمِنْطَقَةِ قَدْ كَرَّسَ نَوْعًا مِنْ اَلْحُكْمِ اَلذَّاتِيِّ اَلْعَشَائِرِيِّ اَلْمَحْمِيِّ آنَ ذَاكَ [4].

وَأَسَّسَ لِتَبَوُّءِ عَائِلَةِ إِخْوَانِ صَبْحَة مَكَانَةُ اِحْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ عِنْدَ اَلدَّوْلَةِ اَلْعُثْمَانِيَّةِ وتَأمينِ عَودَتِهم إلى البصرَةِ، وشَغَلَ مِنْهُمُ وظائِفَ حُكوميَّةً رفيعَةً، وآخَرونَ عَمِلوا بِالتِّجَارةِ والزِّراعَةِ على امْتِدادِ رُقْعَةِ الدَّوْلةِ في الفُراتِ وحتَّى انْحِسارِها نَحْوَ الشَّمَالِ تَدْريجياً [6].

وَرَغْمَ مَعْرِفَةِ ثَمَنِ عَدَمِ الخضوعِ، لمْ يَسْتَكنْ عِيَالُ طَمَّاحَ إِخْوَانُ صَبْحَة زُعَماءُ الشرقيّنَ أَحَدُ أَقْطابِ المَجْلِسِ المَحَلّي لمُتصرفيّةِ لواءِ الزَّورِ [4]، حَيثُ طَلبَ السير "ستانلي مود" البريطانيُّ والَّذي قَدِمَ مِنْ بَغْدادَ بِصُحْبَةِ الشريفِ ناصر ابنُ عمِّ الأميرِ فَيصل الأول وَفُرْسانِ الشَّريفِ اسْتلامَ مَفَاتيحِ مُتصرفيّةِ لواءِ الزَّورِ، إبَانَ انسِحابِ القوَّاتِ العُثْمانيّةِ منها وتطبيقاً لهُدْنةِ "مودروس" [3].

وقد كانت مُتصرفيّةِ لِواءِ الزَّورِ تُدارُ بثَلاثةِ أقطابٍ عَشَائريّةٍ بَعْدَ نِهَايةِ الحَرْبِ العَالميّةِ الأوْلى عام 1918 [4].

فتمَّ تَشْريدُ عِيَالُ طَمَّاحَ إِخْوَانُ صَبْحَة، ونُفِيَ مُعْتَرِضو الاسْتِسْلامِ مِنْهُمْ إلى بومباي الهِنْدِ، حتَّى عَادوا خِفْيةً إلى دَيْرِ اَلزُّورِ بَعْدَ اِستِبْدالِ تَمَركُزِ القُوَّاتِ البِريطانيّةِ بِالفَرنسيّةِ لِتلكَ الْمَنطِقةِ الاستراتيجيّةِ استِكْمالاً لتنفيذِ اتّفاقيّةِ "سايكس بيكو" [3].

وَإِذْ مَا فَتِئَ أَحْفَادُ صَبْحَة وَإِخْوَانُهَا يَكْمُنُونَ تِلْكَ اَلنَّخْوَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ اَلَّتِي تَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ اَلنَّقِيَّةِ، فَهُمْ لَا زَالُوا عَلَى اَلْعَهْدِ مَاضُونَ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ، وَتَشْهَدُ حَاضِرَةُ رَأْسَ اَلْعَيْنِ وَدَيْرَ اَلزُّورِ لَهُمْ دَوَامَ اَلنَّخْوَةِ إِلَى هَذَا اَلْيَوْمِ فِي عَمَلٍ صَالحٍ، وطَرْدِ كُلّ {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [12].

لَقَدْ كَانَ أَثَرُ صَبْحَةَ وَإِخْوَانَهَا مَضْرِبَ مِثْلٍ فِي وَادِي اَلْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ لِكُلّ عَرَبِيّ يَأْبَى اَلذُّلَّ وَالْهَوَانَ، وَكَانَ يُتَرَحَّمُ عَلَى كُلّ مَنْ لَهُ تِلْكَ اَلصِّفَةَ المحمودةِ بالإشارةِ إليهمْ وإلَيْها.

وَتَكَنَّى اَلْمَوْلُودَاتُ بِاسْمِهَا وَتُسْمَعُ هَمَسَاتُ اَلْمَارَّةِ عِنْدَمَا تُسْرُدُ قَصَصُ اَلنَّخْوَةِ على ضِفافِ نَهْرِ الفُراتِ في المدينةِ السَّاحِرَة دَيْرَ اَلزُّورِ.

فَيُقَالُ يَرْحَمُ اَللَّهُ صَبْحَةَ وَيرْحَمُ اَللَّهُ اِبْنَ صَبْحَة وإخوانِها عِيَالُ طَمَّاحَ وذُرِّيتِهِمُ الطيّبةِ ذُوي اَلنَّخْوَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ وَيسْتُرَهُمْ فِي اَلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

عَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُل يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْت إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ [8].

وَإِذْ نَهَى النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهْيًا شَدِيدًا عَنْ كُلِّ دَعَاوَى الْعَصَبِيَّة , فعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ، قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم:

مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ [9].

وأنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ خطبَ النَّاسَ يومَ فتحِ مَكَّةَ، فقالَ: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللَّهَ قد أذهبَ عَنْكمُ عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وتعاظمَها بآبائِها فالنَّاسُ رجلانِ: برٌّ تقيٌّ كريمٌ على اللَّهِ، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على اللَّهِ، والنَّاسُ بنو آدمَ، وخَلقَ اللَّهُ آدمَ من الترابِ [10]، قالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [11].

المصادر والمراجع:

1- من هو الهولي، صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي. منشورات القاسمي. الإمارات العربية المتحدة 2021

2- القول الحاسم في نسب وتاريخ القواسم، صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي. منشورات القاسمي. الإمارات العربية المتحدة 2021

3- فيصل الأول ملك العراق، علي علاوي. مركز الرافدين للحوار 2021

4- لواء الزور في الوثائق العثمانية، الجزء الأول، أحمد سلامة القيسي. مركز التاريخ العربي للنشر 2020

5- لقطات الذهب في آثار العرب (سنجق ديرالزور)، القاضي، محمد هلال أفندي. مكتبة إسطنبول، الأرشيف العثماني، ترجمة وتحقيق أحمد سلامة القيسي. دار البشير في مصر 2019

6- فلاحو سورية وسياساتهم - أبناء وجهائهم الريفيون وسياساتهم، المؤلف الدكتور حنا بطاطو. مكتبة وكالة الاستخبارات الأميركية 1999، وترجم لاحقا في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في قطر - ترجمة عبد الله فاضل ورائد النقشبندي

7- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاء .2747

8- صحيح البخاري، الراوي أنس بن مالك. 2444

9- صحيح مسلم، الراوي أَبِي مِجْلَزٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ. 1850

10- صحيح الترمذي، الراوي عبد الله بن عمر. 3270

11- القرآن الكريم، سورة الحجرات. آية13

12- القرآن الكريم، سورة القلم. آية12-13